أ.د. احمد محمد هليل
قاضي القضاة في المملكة الاردنية الهاشمية

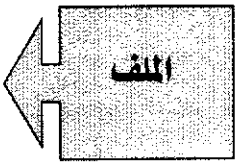


# الوحدة الاسلامية نماذج من سيرة الرسول (ص)

## تمهيد

التجمع والتوحيد أساس الوجود وسنة الكون، وإن أدنى نظرة في أنفسنا أو في مظاهر الكون من حولنا تشهد على صدق هذا الادعاء، فالمجموعة الشمسية تسير منتظمة حول مركزها، وهي وحدة لا تنفك ولا تغير ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

والأشجار والنباتات تظل مزدهرة مثمرة أوراقها مادامت الفروع والأغصان والثمار قائمة على أصولها في وحدة متناسقة، فإذا شذ عنها فرع أو سقطت منها ورقة أو غصن أصابه الموت والذبول.

ولو نظرنا إلى آلة ما صنعها الإنسان، فإنها لا تقوم بوظيفتها التي صنعت من أجلها إلا إذا تعاون كل ترس فيها وكل جزء صغير أو كبير على أداء مهمته ودوره في تناسق وتضامن ووحدة.

والإنسان نفسه لا يحيا ولا تتوفر له صحة النفس وقوة البدن إلا إذا تجمعت كل أجهزة جسمه وتضافرت على أداء وظيفتها.

وإن الإنسان لا يستطيع أن يوفّر لنفسه حاجاتها الضرورية إلا إذا كان متعاوناً مع غيره أخذاً وعطاءً، معتقداً أنه عضو في جسم، وبعض في كل،

ورقم من مجموع، فالعمل الجماعي المتناسق سر وجود الحياة وأساس بناء الكون.

وبما أن الذي خلق هو الذي أمر، فقد جاء الإسلام آمراً بالوحدة، مبنية مبادئه وتعاليمه على هذا الأساس.

## جذور الوحدة

الإسلام ليس ديناً مُنبتاً ليس له جذور، فدين الله واحد، وقد فصل القرآن حقيقة الأصل الواحد، وإن محمداً (ص) إنما هو امتداد لموكب الرسل الكرام في مسيرة واحدة وأصل ثابت، فالإنسانية كلها في نظر الإسلام بناء واحد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[٢].

وكأن هذه الآية تقرر «السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد السائرين على شرعه الثابت، وانتفاء الخلاف والشقاق، والشعور بالقربى الوثيقة التي تدعو إلى التعاون والتفاهم ووصل الحاضر بالماضي والماضي بالحاضر، والسير جملة في الطريق، وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، ففيم يتقاتل اتباع موسى وأتباع عيسى، وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد(ص).. ولم لا يتضامن الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الصادرة للجميع أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه[٣].

فرسل الله جميعاً حملت ذات الدعوة ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ) [٤].حتى كأنهم رسول واحد على اختلاف زمانهم ومكانهم ولغاتهم، وقد مثل رسول الله (ص) نفسه لبنة في هذا الصرح العظيم فقال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة،

فجعل الناس يطوفون به ويقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذا، إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة»[٥].

فالدين إذاً دعوة إلى الوحدة الجامعة المبنية على الأصول الثابتة، ودعوة إلى العودة إلى الوحدة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[٦] وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾[٧] أي فاختلفوا فبعث الله النبيين لإخراجهم من الاختلاف وإرجاعهم إلى الوحدة على اختلاف معانيها.

ويذكّرهم القرآن بأصلهم الواحد وأن تشعبهم الناتج عن كثرتهم لا يسوّغ لهم التفرق قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[٨].

قال ابن عاشور: «فيلوح لك معنى هذا التعليل الذي لم يفصح عنه المفسرون إفصاحاً تماماً، إذ يجنش للسامع أن يقول: إن التعارف يكون في حالة عدم التشعب آكد وأظهر، فكيف جعل التشعب للتعارف. فنقول له: إن الآية تلوح إلى أغلاط البشر، إذ جعلوا أواصر القبيلة أسباباً للتخالف والتفرق والتقاتل... ليصير في الناس إلى أن يكونوا أمة واحدة كما أنشأهم الله تعالى، فكان ذلك شهادة له بأنه الفطرة»[٩].

ويقول: «والمقصود أنكم حرفتم الفطرة وقلبتم الوضع فجعلتم اختلاف الشعوب والقبائل يسبب تناكراً وتطاحناً وعدواناً»[١٠].

## الوحدة والتوحيد

لقد قام الإسلام على ركنين أساسين: «كلمة التوحيد» و«توحيد الكلمة» فكلمة التوحيد هي الباب الوحيد الذي يدخل منه الناس إلى ساحة الإسلام، وتوحيد الكلمة هو التطبيق العملي لكلمة التوحيد، فكلمة التوحيد باب الإسلام، وتوحيد الكلمة سر البقاء فيه والإبقاء عليه، ولا شك أن التوحيد يبعث على الوحدة.

ودعا الإسلام الناس جميعاً إلى كلمة سواء أن لا نعبد إلاّ الله حتى لا نكون كالعبيد المملوكين عند الشركاء المتشاكسين، وكلمة التوحيد هي العنصر الأساس في توحيد الأهداف والاهتمامات والتصورات، وهذا يجعل الجماعة متقاربة متآلفة متوحدة، وذلك أن كل فرد من أفرادها يرتبط بغيره على أساس الإيمان بالله، فيكون البنيان متآلفاً والجميع متماسكاً، قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾[١١].

وقد جاءت العبادات في الإسلام ترجمة لهذا المعنى، مرسخة لهذا التلاقي في تدريب عملي حتى لا يصيبه ضعف أو يعتريه وهن.

فالصلاة هي الصلة الدائمة المتكررة بالله سبحانه وتعالى، ينادي منادي الإيمان ويرفع الأذان، فيترك المسلمون ما بأيديهم من أشغال وما في أفكارهم من مشاغل، منطلقين صوب النداء، فتجتمع الأبدان،وتتعارف الوجوه، وتتصافح الأيدي، وتتآلف القلوب، يقومون في صعيد واحد، يناجون رباً واحداً، ويصلون خلف إمام واحد، ويتلون كتاباً واحداً، ويتوجهون إلى قبلة واحدة، ويؤدون أعمالاً واحدة، ويتلون كتاباً واحداً، ويتوجهون إلى نقطة واحدة ومركز ثابت، لا يتحولون عنه ولا يلتفتون[١٢].

وتأدية هذه العبادة في جماعة أمر مقصود أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[١٣]. فالركوع مطلوب، ولكنه مطلوب مع الراكعين لترتسم صورة حية ماثلة للوحدة الإسلامية[١٤].

«وإذا وقف المسلم بين يدي الله ليتضرع ويناجي لم تجر العبادة على لسانه كعبد منفصل عن إخوانه منبت عن أبناء دينه، بل كطرف من مجموع مترابط ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [١٥]، ولا يخص نفسه بدعاء بل يدعو ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[١٦].﴾

وإن العمل الواحد في حقيقته وصورته يختلف أجره اختلافاً كبيراً حين يؤديه وحيداً وحين يؤديه مع آخرين.

إن ركعتي الفجر أو ركعات الظهر هي هي، لم تزد شيئا عندما يؤثر المرء أداءها في جماعة عن أدائها في عزلة، ومع ذلك فقد ضعَّف الإسلام أجرها بضعاً وعشرين مرة... وهذا إغراء شديد بالانضواء إلى الجماعة ونبذ العزلة ودفع بالإنسان إلى الانسلاخ من وحدته والاندماج في أمته. إن الإسلام يكره للمسلم أن ينحصر في نطاق نفسه، وأن ينأى بمصلحته عن مصلحة الجماعة وحياتها»[١٧].

وفريضة الزكاة طهارة للمجتمع وحماية له من عوامل الهدم والتفرقة والصراع. طهارة للمزكي من الفردية والأنانية والأثرة، وإلزام له بالشعور مع المحرومين، فيقترب منهم في شعوره ودثوره.

وطهارة لنفس الفقير من الحسد والضغينة على أرباب الأموال، ومن شأن الإحسان أن يستميل قلب الإنسان، وأن يستل من القلوب الإحن والأضغان.

والزكاة أيضاً طهارة لشخصية الفقير، فهو ليس ضائعاً في المجتمع، والمجتمع لا يدعه فريسة للجوع، متروكاً لضعفه وفقره، بل يعمل على إقالة عثرته، ويتحمل معه شيئاً من أثقاله، فيحس أنه من المجتمع وإليه، فتقترب المسافة بين الغني والفقير، ليكونوا جميعاً كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له الجسد كله.

والصيام تذكير عملي بجوع الجائعين وبؤس البائسين، فهو أشبه ما يكون بالفقر الإجباري، فيشعر الغني بجوع الفقير، ويتذوق مرارة الجوع وألم الحرمان، فيعطف على إخوانه لأنه تجرع معهم ذات المرار.

وتتحول وحدة الشعور إلى وحدة المشاعر، فتجتمع القلوب على الأخوة، والأرواح على الطهر، والمشاعر على الإحسان، في وحدة داخلية تكتمل بوحدة ظاهرية، إذ يمسكون في وقت واحد، ويفطرون في وقت واحد، لا يستقدمون ولا يستأخرون.

وفي الحج تتضح الوحدة في أجلّ صورها، فالكل قصد ذات المكان، بإخلاص جنان، طمعاً في رضا الرحمن، ولبسوا جميعاً لباساً موحداً أشبه ما يكون بالأكفان.

«في الحج نرى معنى الوحدة جلياً كالشمس: وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في القول»[١٨].

العربي والعجمي، الفقير والغني، السيد والمسود، توحد ألسنتهم كلمة التوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ولمّا كانت قريش ترى لنفسها فضلاً على سائر العرب، وتترفع أن تقف معهم في ذات الموقف، فقد اعترض الإسلام على هذا الموقف قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[١٩].

وذلك أن الوحدة القائمة على التوحيد من أجلِّ الحكم المتوخاة من أعمال الحج، ولذلك لابد للناسك من أن يتوحد مع الناس في جميع المناسك.

وهكذا نرى أن العبادات في الإسلام تبعث على الوحدة في ظل التوحيد.

أراد الإسلام ألا يكون هذا الشعار الذي رفعه ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٢٠]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[٢١]، مجرد شعار، فربطه بالعبادات والشعائر ربطاً وثيقاً حتى يستقر في عقل المسلم فهماً ووعياً، وفي قلبه شعوراً وإيماناً، وفي حياته سلوكاً وأعمالاً.

يقول البشير الإبراهيمي: «ما شرع هذه الشعائر عبثا، وإنما شرعها لحكم جليلة، أعلاها جمع الأمة على الدين، لتجتمع في شؤونها الدنيوية، وتوحيدها في عبادة الله الأحد، لتتربى على الاتحاد في مصالحها العامة والمشتركة»[٢٢].

## الوحدة سبيل النصر

الاتحاد قوة للضعفاء، والفرقة ضعف للأقوياء، ولحكمة بالغة قال تعالى لجنده المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾[٢٣]، وهذه النسبة، واحد لعشرة، هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين المالكين لأسباب النصر وسبيله، وبين الكافرين الذين لا يفقهون.

لكن المتمعن في الآية الكريمة يرى أن الآية لم تقصد أن يقف المؤمن وحده أمام عشرة من أعدائه، وإنما أوقفته في جمع من إخوانه، ليغلب أكثر منه عشر مرات، وكأن الآية الكريمة ترمي ضمناً إلى التكتل والوحدة التي تجعل المؤمنين على قلب رجل واحد، في وحدة تدفع المسلم إلى أن يضحي بنفسه في سبيل أخيه، وكأنه يدافع عن نفسه لا عن شخص آخر منفصل عنه، وإن قلة بهذه الصفة منتصرة لا محالة، وإن قابل الواحد منها عشرة من أعدائها.

وحتى عندما خفف الله عن المؤمنين الصابرين لم تترك الآية التنبيه الى التوحد والتكتل، فبدلاً من أن تطلب من المؤمن أن يجابه اثنين من أعدائه طلبت ذلك منه في جمع، حتى كأنهم لحمة واحدة، يصعب الفصل بينها حتى على سبيل التوضيح والتقسيم قال تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤).

وقال تعالى في سورة الصف:﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (٢٥).

إنه «تكليف فردي، ولكنه فردي في صورة جماعية، في جماعة ذات نظام... بنيان تتعاون لبناته، وتتضامن وتتماسك، وتؤدي كل لبنة دورها، وتسد ثغرتها، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت لبنة عن أن تمسك بأختها: تحتها أو فوقها أو على جانبها سواء»(٢٦).

وقد حث الله تعالى المؤمنين وحرض مشاعرهم وحرّك كوامنهم على سبيل الحض والأمر بطريقة ملؤها الإثارة والاستفزاز فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(٢٧). (الأنفال: ٧٣).

قال البقاعي في نظم الدرر: «أي إلا تفعلوا مثله من تولي المؤمنين، ومعاداة الكافرين كما يفعل الكفار بالتعاضد والتعاون في النفس والمال، تكن الفتنة والفساد، فاللائق بكم أن تكونوا أعظم منهم في ذلك»(٢٨).

ولكن شتان بين وحدة ألّفتها يد الله، واعتصمت بحبل الله، وبين وحدة جمعتها المصالح والأهواء فإنه لا شك مآلها الإنهيار لأنها تقوم على شفير هار.

وإن الدارس للسيرة والتاريخ ليتجلّى له بوضوح أن أسباب نصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة بعد الإيمان بالله والثقة به لهو التماسك والاتحاد في الصف المؤمن مقابل تشتت باد،وإن توارى خلف انضمام ظاهري الشكل، فالأحزاب الباغية حينما أتوا إلى المدينة بغية القضاء على الإسلام والمسلمين كانوا كثرة عددية ترهب وترعب، لكنها كانت تنقصهم الوحدة الجامعة والألفة الرابطة، فتشتت الشمل وتفرّق الجمع وتبعثر الصف[٢٩].

فالأعداد مهما كانت كثرتها إذا كانت أعداداً غير متكاتفة ولا متحدة كانت كما لا قيمة له، لأنها أشبه ما تكون حينها بغثاء السيل الذي يجري الى غير هدف معلوم أو مجرى مرسوم، وهذا ما كان يخشاه (ص) على أمته حين قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتهم، قالوا: أوَمِنْ قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل»[٣٠].

## الوحدة في العلاقات الاجتماعية

وفي العلاقات الاجتماعية نرى أن الإسلام أراد أن تكون الروابط في تلك العلاقات متينة، يتحمل كل فرد في المجتمع الإسلامي مسؤوليته ويعرف كل إنسان فيه حقوقه وواجباته، الكل فيه راع، ومسؤول عن رعيته[٣١]. في تعاون وتكاتف وتعاضد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٣٢].

ويبدأ هذا التعاون مع الاسرة الصغيرة ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾[٣٣]. ثم تتوسع الدائرة، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ﴾[٣٤]. فالرحم معلقة بالعرش تقول: «من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[٣٥].

ثم تنطلق النصوص التي تحث على الترابط والتواد الذي يبعث في النهاية على الاتحاد، من دائرة الأسرة الضيقة إلى ما هو أوسع، ابتداءً بالجيران «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٣٦]. وانتهاءً بالمجتمع كله، صغيرنا وكبيرنا «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا، فليس منا»[٣٧]«المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبَّك بين أصابعه»[٣٨].

فهو ترابط عضوي لا يستغني فيه جزء عن آخر، ولا ينفصل عنه، ولا يحيى بدونه، والمسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم.

وحفاظاً على هذه الوحدة من أدنى شائبة، فقد حرَّم الإسلام كل ما من شأنه أن يعكَّر صفوها، فحرَّم التباغض والتحاسد والتدابر، وحرم السخرية، والتنابز بالألقاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣٩]. وقد بين الإسلام أن التفكك الاجتماعي لا تنعكس غوائله على المتخاصمين فحسب، بل قد تمتد لتصيب المجتمع بأسره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾[٤٠].

وبين الرسول (ص) أن تخاصماً بين اثنين قد حجب خيراً عميماً عن الأمة بأسرها إلى يوم القيامة. قال (ص) لأصحابه وقد خرج ليعلمهم زمان ليلة القدر، فصادف خروجه تشاجر بعض أصحابه فقال: «كنت قد خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلان وفلان، فرفعت»[٤١].

ولذلك فإن الإسلام حذرنا من فساد ذات البين، واعتبرها الحالقة، لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، ومعنى ذلك أن من أراد أن يحافظ على دينه فليحافظ على وحدة صفه، إذ لا دين مع الفرقة، ويد الله مع الجماعة.

## نماذج مضيئة في الوحدة من السيرة النبوية

### السيرة النبوية

إذا عدنا إلى السيرة النبوية نستلهم منها دروساً في الوحدة، وجدنا أقوال الرسول (ص) وأفعاله كلها قبل النبوة وبعدها تبني الصف، وتجمع الكلمة، وتلم الشمل، منها ما كان في الصلب مباشرة، ومنها ما كان بالإشارة.

فحين تصطدم الآراء وتتغذى بالأهواء، ولا يجد أصحابها غير السيف وجاء، يجيء محمد (ص) بالدواء. وصدق من عقلاء الغرب من قال: «لو كان محمد حياً لحل مشاكل الإنسانية وهو يحتسي فنجاناً من القهوة».

جاء محمد (ص) حين اختلفت القبائل أيها ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة المشرفة، فوقع بينهم التنازع والخصام، واستمر أربعة أو خمسة أيام، وكاد أن يتحول الخلاف إلى حرب دامية، إلا أن أبا أمية ابن المغيرة المخزومي – وكان أسن رجل في قريش- أشار عليهم أن يحكّموا أول رجل يدخل عليهم الباب، وكان من قدر الله أن يكون محمد هو أول من يدخل عليهم المكان، فرضوا جميعاً وهتفوا: هذا الأمين رضيناه، هذا الأمين رضيناه.

ويرى محمد (ص) نفسه أمام موقف لا تؤمَن عقبي الفضل فيه بإيثار قبيلته على أختها من إعادة الفتنة جَذِعَةً من جديد، حتى لو جاء الفضل عن طريق المصادفة والاقتراع، إذ هو أمام موقف يحمل شرفاً عظيماً لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة، ومحمد (ص) يريد أن يحل الخصام لا أن يرجعه، وأن يفض التشابك لا أن يشعله، فجمعهم على كلمة سواء، وعلى رأي أزال العداء، يقول العقاد: «فتمت عبقرية محمد في حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام. فما عرض

له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء، وأدناها إلى السلم والإرضاء[٤٢].

وقد حضر صلى الله عليه وسلم قبل نبوته حلفاً يدعو إلى التعاون والتناصر وعلى التكاتف صفاً متراصاً ويداً واحدة في وجه الظالم، ألا وهو حلف الفضول، وسببه أن رجلاً من زبيد جاء بسلعة إلى مكة فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه بني عبد الدار وبني مخزوم وغيرهم فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس وذكر ظلامته في أبيات، ونادى من يعينه على حقه، فاجتمعت خمسة بطون من قريش في دار عبدالله بن جدعان رئيس بني تيم.

وتحالفوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته، ثم قاموا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه حق الزبيدي ودفعوه إليه.

وقد حضر(ص) هذا الحلف، وكان يفتخر بحضوره هذا الحلف، الذي اجتمع فيه الناس واتفقوا على أن يكونوا صفاً واحداً في الحق، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت»[٤٣].

والهجرة النبوية وإن كانت خروجاً بالدين إلى حيث التمكين، إلا أنها وبنفس الوقت نوع متين من أنواع الترابط، إذ كانت الهجرة من أجل تكوين الوحدة الإسلامية وجمع المسلمين كلهم في صعيد واحد وعلى قلب رجل واحد.

ولذلك فقد أمر الله تعالى بالهجرة حيث النصرة والمنعة، وأعذر المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَسَاءَتْ مَصِيراً، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً) (٤٤).

وفي يوم الهجرة نرى الرسول (ص) شديد الحذر من أن يتصرف تصرفاً من شأنه أن يصرف تجمع الأنصار، وفي نفس واحد منهم دخل، وذلك حين استقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله، وهو مشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس، أو اختيار محلة دون محلة.. فترك لناقته خطامها تسير، ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك، وفصلت فيما لو فصل فيه إنسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها، ولو أمنت في تلك الساعة على دخل وسوء طوية(٤٥).

وكان أول عمل قام به (ص) بعد أن وطئت قدمه المدينة بعد بناء المسجد الجامع هو عقد رباط واتحاد بين المهاجرين والأنصار، وذلك بعد خمسة أشهر من هجرته (ص) ، إذ آخى بينهم أخوين أخوين، وليس هناك حال أدل على الترابط من كلمة الأخوة، فكأن المدينة كلها أسرة واحدة، وكأن المجتمع كله بيت واحد، وبلغ بهم الترابط أن الأنصار قد عرضوا نخيلهم على رسول الله( ص) ليقسم بينهم، فأبى فقالوا: إذاً تكفونا المؤونة، ونشرككم في الثمرة، فقبل ذلك.

وكان سعد بن الربيع أكثر الناس مالاً فقال لأخيه المهاجر عبدالرحمن ابن عوف: أقسم مالي على نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمها لي، أطلقها فإذا انقضت عدتها، تزوجتَها.

فقابل عبدالرحمن بن عوف هذا الإيثار بإيثار وقال له: بارك الله لك في مالك وأهلك، وإنما أنا امرؤ تاجر، فدلوني على السوق. فدلوه على سوق بني قينقاع(٤٦).

أما الأوس والخزرج وكلاهما من الأنصار، فقد كانت بينهما حروب دامية وثارات ماضية، دامت مائة وعشرين سنة، فآخى النبي (ص) بينهم، وجعل

شتيتهم جمعاً، وتفرقهم وحدة، وكلمتهم واحدة، فجمع بينهم برباط الأخوة، ومسح على عداوتهم بيد المحبة بفضل الله ومنّه، وأشار إلى ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤٧].

وعندما نزت هذه العصبية يوماً ما وتنادى الأوس: يا للأوس. وتنادى الخزرج: يا للخزرج. أسرع إليهم (ص)، وأطفأ هذه الفتنة في مهدها، ولم يتركهم حتى توارت في لحدها وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنه»[٤٨].

وقال: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»[٤٩].

وهكذا نرى أن رسول الله (ص) قد تعهد أصحابه بالتربية على خلق الوحدة ونبذ الخلاف والفرقة من أول لحظة انتموا فيها إلى مجتمع الإيمان، وعند أي بادرة أو انحراف كان يوجه ويقوِّم ويحذر.

روى مسلم عن جابر (رض) قال: كنا مع النبي (ص) في غزوة فكسع [أي ضرب] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. قال (ص): «ما بال دعوى الجاهلية» قالوا يا رسول الله: كسع رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين، فقال (ص): «دعوها فإنها منتنه»[٥٠].

وعندما سمع المقالة زعيم المنافقين عبدالله بن أبي قال: أوقد فعلوها، قد كاثرونا في بلادنا. ثم قال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني أقطع عنق هذا المنافق.

فنهاه الرسول (ص) عن ذلك حفاظاً على وحدة الصف وجمع الكلمة، ودرءاً لمقالة السوء، وعلل ذلك بقو له: «حتى لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه»[٥١].

وقد كان هؤلاء المنافقون حرباً على الوحدة التي كونها النبي (ص) وكانوا يثيرون الفرقة حيثما وجدوا لذلك مدخلاً، وإثارة الفتن لم تكن

مقتصرة على المنافقين، وإنما اليهود أيضاً كان لهم في ذلك دور كبير، ومن ذلك ما رواه ابن هشام في سيرته أن شاس بن قيس قد مرّ بنفر من الأوس والخزرج، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فأجلس معهم، ثم أذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. ففعل.

فغضب الفريقان ثم قال بعضهم لصاحبه: إن شئتم رددناها جذعة، وقالوا: موعدكم الظاهرة – أي الحرة – وتنادوا: السلاح السلاح.

فبلغ ذلك رسول الله (ص) فخرج إليهم وقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوة الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله (ص) سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله، وعدوهم[٥٢].

وأول عظة للمسلمين بعد بدر هي توحيد الصفوف، قال (ص): «ستكون هنات وهنات، من أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان» أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستأصل هذا المفرق لتبقى الأمة مجتمعة وتتخلص من أخطار بقائه.

وفي غزوة بدر نرى رسول الله (ص) حريصاً على أن لا تتطرق الغيرة إلى صدر غلامين أخويين فتتحول الغيرة إلى فرقة أو نزاع، وذلك في حادثة قتل أبي جهل.

وكان أبو جهل في عصابة جعلت سيوفها ورماحها حوله مثل السياج، وكان في صفوف المسلمين حول عبد الرحمن بن عوف شابان من الأنصار، فقال له أحدهما سراً: يا عم أرني أبا جهل: قال وما تصنع به؟ قال: أُخبِرتُ أنه

يسب رسول الله (ص) ، فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا.

وقال الآخر مثل ذلك، فلما تصدعت الصفوف رآه عبد الرحمن يتجول فأراهما فابتدراه، فضربه الأول فطارت رجله كما تطير النوي، وأثخنه الآخر، وتركه وبه رمق، ثم أتيا رسول الله (ص)، فقال الأول: أنا قتلته يا رسول الله. وقال الآخر: أنا الذي قتلته.

فنظر (ص) إلى سيفيهما، وقال: كلاكما قتله، كلاكما قتله، فانصرفا، وكلاهما راض بهذه الشهادة.

ويوم غزوة حنين أمر النبي (ص) بجمع الغنائم والسبي، فكانت شيئاً كثيراً، فأخرج الخمس من الفيء ثم أخذ وبرة من سنام بعير، وقال: ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، وأعطى الخمس لناس ضعفاء في الإسلام يتألفهم، ولأناس لم يسلموا بعد ليحبب إليهم الإسلام، فاستغرب الأنصار هذا التصنيع وقال بعضهم: إن هذا لهو العجب، يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، وتناجوا بذلك كارهين هذا الفضل.

فأبلغه ذلك سعد بن عبادة رئيس الأنصار فقال له (ص): وأين أنت مما يقولون؟ قال: ما أنا إلا واحد منهم يا رسول الله.

فما كان من النبي (ص) إلا أن جمعهم وخاطبهم، وأسرع إلى إرضائهم حتى لا يؤثر حتى لا يؤثر ذلك على وحدة الصف، ولكي يبقى الصف في وحدة.

وكان مما قال (ص): «أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله (ص) إلى رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله (ص) قسماً وحظاً. ثم انصرفوا راضين.

وحين قال (ص) صحابته: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة» اختلفوا في الطريق، حين أوشكت الشمس على المغيب فقال: بعضهم أمرنا الرسول (ص) أن لا نصلي العصر إلا في بني قريظة، وقال بعضهم: إنما قصد حثنا على الإسراع وصلوا في الطريق.

وعندما سمع (ص) بذلك أقرّ كلاً من الطرفين على موقفه، وجمعهم صفاً واحداً في وجه العدو(٥٣).

وفي الحديبية حين بلغ (ص) مهبط الحديبية بركت ناقته، فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلأت القصواء، فقال: «ما خلأت القصواء، وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل».

ثم قال (ص): «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت، فتقدم حتى نزل بالحديبية.

ثم جاء سهيل بن عمرو، يفاوض الرسول (ص) فقبل منه (ص) شروطاً رآها المسلمون مجحفة، حقناً للدماء.

ثم دعا (ص) علياً(ع) وأملى عليه أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: ما ندري ما الرحمن، اكتب: باسمك اللهم، فأمره الرسول (ص) أن يكتب ذلك.

ثم أملى: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. اكتب: محمد بن عبدالله، فقال: (إني رسول الله وإن كذبتموني) وأمر علياً أن يمحو ذلك ويكتب: محمد بن عبدالله، فامتنع عليّ، فمحاه (ص) بيده الشريفة(٥٤).

لقد كان يمكنه (ص) أن يدخل مكة عنوة، ومعه جيش يزيل كل عقبة، لكن آثر السلم والسلامة حقناً للدماء، وتقريباً للقلوب، وتأليفاً للنفوس، فكان

ذلك أجدى من قطع الرؤوس، ويصف الله تعالى هذه الحادثة بما لم يصف به غيرها فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾(٥٥).

قال ابن عاشور معلقاً على هذه الحادثة: «وأثنى الله على المسلمين إذ قبلوا تأجيل العمرة إلى العام المقبل، وأزالوا البسملة من الصحيفة، وغيروا وصف الرسول بوصف محمد بن عبدالله ترجيحاً لما في ذلك من مصلحة الأمن، ولم تأخذهم الحمية كما أخذت المشركين فقال تعالى في ذلك: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥٦) (الفتح:٢٦) تعريضاً بأن المسلمين جروا على رعي المصلحة وأهملوا أمر الحمية والضغن»(٥٧).

وفي فتح مكة رد الرسول (ص) على من دخلها من أصحابه منتشياً بالنصر – لا يراعي ما يقول – رداً يفتح قلوب أهل مكة قبل صخورها وجبالها.

فعندما مرت كتيبة الأنصار أمام أبي سفيان قال له حامل رايتهم سعد ابن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، أذل الله قريشاً، فبلغت مقالته هذه رسول الله (ص) ، فقال (ص): «اليوم يوم المرحمة، هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً»(٥٨).

وأخذ الراية من سعد عقوبة له على كلمة قالها أمام أبي سفيان الذي ما ترك طريقاً فيه إيذاء للرسول (ص) إلا سلكه، ولا ناراً لمحاربة رسول الله (ص) إلا أوقدها، زعيم قريش التي ما تركت باباً من أبواب الإيذاء إلا واقتحموه، لكنه (ص) يريد أن تكون القلوب هي الثمرة، يريد أن يتألف نفوس قريش، لتدخل في دين الله، وبالإسلام تنعم، لا أن يحصد رؤوسها لتكون حصب جهنم، فنزع اللواء من يد سعد، ودفعها لقيس بن سعد ليرى سعد أن اللواء لم يخرج من يده حين يراه في ابنه الذي هو امتداد لشخصه.

ثم دخل (ص) الله عليه وسلم مكة دخول المتواضعين، نسي فرحة النصر، وانحنى انحناءة الشكر، ونظر إلى قريش وهم يملأون المسجد الحرام ينتظرون

ماذا يفعل بهم، فخطب بهم خطبة بليغة، أسقط فيها أمور الجاهلية، وأعلن عن ذهاب نخوتها ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال : «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

فألف بذلك قلوباً نافرة، وقرب نفوساً بعيدة، وجمع تحت راية الإسلام أعداداً غفيرة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾[٥٩].

## استثناء من الأصل

لقد كان فتح مكة فتحاً لقلوب أهلها، وكان يومها للمرحمة التي شملت أهل مكة عدا نفر منهم، عظمت ذنوبهم، وكبرت جرائمهم، فأهدر الرسول(ص) دماءهم، وأمر بقتلهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، ومن هؤلاء عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وهند بنت عتبة، وكان له (ص) مع كل واحد من هؤلاء موقف عظيم»[٦٠].

فأما عكرمة بن أبي جهل، فقد هرب لا يلوي على شيء، فتقدمت زوجته إلى رسول الله (ص)لى الله عليه وسلم ترجو الأمان لزوجها، فيعطيها (ص) الأمان فتلحق به، وقد أراد أن يركب البحر.

فقالت له: جئتك من عند أبر الناس وخيرهم، لا تهلك نفسك، فإني قد استأمنته لك.. فيقفل راجعاً، وعندما يراه (ص) يقف قائماً فرحاً مرحباً بانضمامه إلى الجماعة المسلمة والصف المؤمن ويقول له: «مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً».

وأما صفوان بن أمية فبعد اختفائه جاء ابن عمه عمير بن وهب إلى الرسول(ص) وقال له: يا نبي الله إن صفوان سيد قومه، هرب ليقذف نفسه في البحر، فإنك قد أمنت الأحمر والأسود.

فقال له (ص): «أدرك ابن عمك فهو آمن».

فقال: أعطني علامة فأعطاه (ص) عمامته، فأخذها عمير حتى أدرك صفوان، فقال له: جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس، وهو ابن عمك، وعزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.

قال صفوان: فإني أخاف على نفسي. فقال: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة علامة الأمان.

فعاد إلى رسول الله (ص) ، فعرض عليه الرسول (ص) الإسلام فقال له صفوان: أمهلني شهرين: فقال له الرسول: «أنت بالخيار أربعة أشهر».

وقبل غزوة تبوك بنى المنافقون مسجداً ضراراً ليهدموا به وحدة المسلمين ويفرقوا جمعهم، ويكون أداة لإضعاف الحبل المتين، وتوهين العروة الوثقى، وتعللوا بأنهم بنوه للضعفاء ولأهل العلة في الليلة الشاتية، وأتوا إلى الرسول (ص) ليصلي لهم فيه، فيحتجوا بصلاته عل تقريره وإثباته.

فقال لهم (ص): «أنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» وعندما رجع (ص) ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل يخبره بخبر المسجد وما أضمره بانوه من هدم الإسلام والتفريق بين المؤمنين، فبعث (ص) من هدمه وأحرقه قبل مقدمه قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾[٦١].

وهكذا نرى أن الرسول (ص) كان حريصاً على هدم كل ما من شأنه أن يفرق الجماعة ويوهن من قوتها حتى لو كان هذا الأمر مسجداً، لأن المسجد غاية الى الوحدة الجامعة التي تضم جماعة الوحدة، ولا خير في مسجد يدعو إلى التفريق، وما أحوج مساجدنا في هذه الأيام إلى الاستفادة من هذا الدرس العظيم فتكون جوامع للشمل شاملة للجميع.

وفي غزوة تبوك تخلف المنافقون عن رسول الله، ثم جاءوا يحلفون ويعتذرون، فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله.

وجاء ثلاثة من المؤمنين الصادقين وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فصدقوا ولم يعتذروا، وكانوا قد تخلفوا عن صف الجماعة، فأذاقهم الرسول(ص) مرارة الوحدة عقوبة لهم على تخليهم عن الصف وتخلفهم عن ركب الجماعة، وتنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، وأظلمت عليهم الدنيا.

وقد أغتنم من يبغي الفرقة هذا الهجران طمعاً في بتر عضو من جسد الأمة، يقول كعب بن مالك: «وبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى إذا جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجّرتها»[٦٢].

حتى إذا تم خمسون يوماً أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٦٣].

وبلغ أمر الرسول (ص) لصحابته بالوحدة ونهيهم عن الفرقة، حتى ما كانت فيه الفرقة من حيث الشكل والظاهر لا من حيث الحقيقة والجوهر.

روى أبو داود عن أبي ثلعبة قال: «كان الناس إذا نزلوا منزلاً [أي في السفر] تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال النبي(ص): «إن تفرقكم هذا من الشيطان» فلم ينزلوا بعد إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لعمهم[٦٤].

وقال (ص) : «من وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله»[٦٥].

وقال: «شركم من يأكل وحده، ويجلد عبده ويمنع رفده»[٦٦].

وقال: «الشيطان يهم بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم»[٦٧].

ونهى (ص) عن بوادر الاختلاف حتى لو كانت في أمر القرآن فقال: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[٦٨].

وقال(ص): «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما أبداً: كتاب الله وسنتي» أو «وعترتي» وهو الاقوى سنداً.

وكان (ص) وهو على فراش الموت يحتضر – شديد الحرص على وحدة الأمة من بعده، فلما اشتد به الوجع قال: «هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده» قال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله، فاختلفوا، فلما كثر اللغط والاختلاف قال(ص): «قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع»[٦٩].

## الخاتمة

إن الأمة إن لم تتبع السبيل نفقت في أنفاق السبل، وإن لم يجمعها الحق شعّبها الباطل، وإن التاريخ يقول: إن الأمة لم تحقق غاياتها وتدرك أمانيها إلا من خلال الوحدة وفي نطاق الجماعة، كما أنها لم تضعف ولم تنتكس إلا بسبب الفرقة والاختلاف، وإن الاختلاف ليضعف الأمم القوية ويميت الأمم الضعيفة، كما أن في الاتحاد قوة للضعفاء.

وقديماً شرح هذا المعنى حكيم لأبنائه، إذ قدّم إليهم حزمة من العصي فعجزوا عن كسرها، ففك رباطها فكسروها، ثم خلص من هذا المثل العملي إلى الثمرة.

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا آحاداً

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افترقن تكسرت أفراداً

إننا نعيش في عالم سمته التقارب، وشعاره التكتل، وإن الأمة لا تستطيع أن تحقق التنمية المنشودة والقوة المطلوبة إلا بالاتحاد، وما لا يتم الواجب إلا به

فهو واجب، وإن أوجب الواجبات اليوم لهو بناء صف الأمة ونشر ثقافة الوحدة، وتعزيز أواصر التماسك، والضرب بيد من حديد على ثقافة الفتنة.

ومن الأولويات المناطة بالعلماء التقريب لا بل الموآخاة بين الطوائف الإسلامية لإزالة معنى الطائفية، واستبدال الخلاف بالاختلاف فإن الاختلاف، محله العقول، والخلاف محله القلوب.

وإذا كان البغدادي قد كتب عن الفَرق بين الفِرق، فإنا أحوج ما نكون إلى الكتابة عن الجمع بين الفرق، وإذا كان الأشعري قد كتب عن اختلاف المصلين فإنا أحوج ما نكون إلى الكتابة عن اتفاق المصلين، والكل منا على ثغرة، وإن نفير طائفة منا تنذر نفسها في سبيل الوحدة بين المسلمين واجب شرعي وفرض كفائي.

والمطلوب أن لا يكون الواحد منا كالدفتر، يحكي ما قال الرجال وما فعلوا، دون أن يضرب معهم في بناء الوحدة بنصيب، أو يرمي في معترك الآراء بالسهم المصيب ولنبني في وحدة أمتنا لبنة.

## الهوامش:

١ - يس/٤٠.
٢ - الشورى/١٣.
٣ - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٧٤/٧.
٤ - لأعراف/ ٦٥و٧٣و٨٥.
٥ - متفق عليه، واللفظ لمسلم في كتاب الفضائل، باب توكله على الله، رقم ٢٢٨٦.
٦ - يونس/١٩
٧ - البقرة/٢١٣.
٨ - الحجرات/١٣.
٩ - ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشركة التونسية للتوزيع، ص ١٠٨- ١٠٩.
١٠ - ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ٢١٦/٢٦.
١١ - آل عمران/١٠٣.

١٢ - قد عدّ الرسول صلى الله عليه وسلم الالتفات اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.
١٣ - البقرة/٤٣.
١٤ - انظر: القرضاوي، يوسف، العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٧، ١٩٨٥، ص ٢٢٩. النحلاوي، عبدالرحمن، التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٤٥ ، ٩٧. امير عبد العزيز، دراسات في الثقافة الإسلامية، مدخل إلى الدين الإسلامي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩، ص ٣٠٧
١٥ - الفاتحة/٥.
١٦ - الفاتحة/٦.
١٧ - الغزالي، محمد، خلق المسلم، المكتبة الفيصلية، ص ١٧٧٠.
١٨ - العبادة في الإسلام، ص ٢٩٠.
١٩ - البقرة/١٩٩.
٢٠ - الانبياء/٩٢.
٢١ - المؤمنون/ ٥٢.
٢٢ - الإبراهيمي، محمد البشير، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٧م ٢/١٦٣.
٢٣ - الأنفال/٦٥.
٢٤ - الأنفال/ ٦٦.
٢٥ - الصف/ ٦٦.
٢٦ - في ظلال القرآن، ٨/ ٨٠-٨١ .
٢٧ - الأنفال/ ٧٣.
٢٨ - البقاعي، أبو الحسن ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، خرج آياته وأحاديثه عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ٣/٢٥٢.
٢٩ - انظر تفاصيل غزوة الاحزاب وما فعله نعيم بن مسعود الأشجعي من تفتيت لجمعهم في سيرة ابن هشام، ٣/١٧٩-١٨١.
٣٠ - سنن أبي داوود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام ، رقم ٤٢٩٧، وأحمد برقم، ٢٢٤٥
٣١ - انظر: البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٩٣، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم ٨٢٩.
٣٢ - المائدة/ ٢.
٣٣ - النساء/ ٣٦.
٣٤ - الأنفال/ ٧٥.
٣٥ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم ٢٥٥٥.
٣٦ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٢٦٢٥.
٣٧ - رواه أبو داود، كتاب الاداب، باب الرحمة، رقم ٤٩٤٣.
٣٨ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم ٤٧٨، ومسلم كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

٣٩ - الحجرات/ ١١.
٤٠ - الأنفال/ ٢٥.
٤١ - أخرجه البخاري، كتاب الايمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم(٤٩).
٤٢ - العقاد، عباس، عبقرية محمد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٦٧.
٤٣ - المرجع السابق، ص ٦٧ – ٦٨.
٤٤ - النساء/ ٩٧-٩٨
٤٥ - انظر، عبقرية محمد، ص ٦٨.
٤٦ - انظر المرجع السابق، ١٤٦/٢ = ١٤٨.
٤٧ - لأنفال/٦٣.
٤٨ - مسلم، كتاب الزهد، باب حديث جابر الطويل، رقم ٢٥٨٤.
٤٩ - كنز العمال، رقم ٣٠٨٩١، وذكره العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الألباس، رقم ١٨١٥.

٥٠ - سبق تخريجه.
٥١ - سيرة ابن هشام، ١٩٨/٢.
٥٢ - انظر، عبقرية محمد، ص ٦٨.
٥٣ - انظر: المرجع السابق، ٢٦٣/٣ - ٢٦٤.
٥٤ - انظر الملحق رقم ص من هذه الرسالة.
٥٥ - الفتح/١.
٥٦ - الفتح/٢٦.
٥٧ - أصول النظام الاجتماعي، ص ١٣٦.
٥٨ - انظر: سيرة ابن هشام، ٤٨/٤.
٥٩ - النصر/ ٢.
٦٠ - انظر المرجع السابق ٥٢/٤.
٦١ - التوبة/ ١٠٧ – ١٠٨.
٦٢ - مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب، رقم ٢٧٩٦.
٦٣ - التوبة/١١٨.
٦٤ - رواه أبو داود، رقم ٢٦٢٨.
٦٥ -المستدرك للحاكم رقم (٧٧٤).
٦٦ - المعجم الكبير للطبراني ١٨٨/٨، رقم ٧٧٧٨.
٦٧ - موطأ مالك، ٩٧٨/٢ رقم ١٧٦٥.
٦٨ - رواه البخاري، رقم ٤٤٧٤.
٦٩ - موطأ مالك رقم ١٥٩٤.